مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-0464
المجلد1 ، العدد2، (جوان2013) EISSN : 2600-6421

نهضة الثقافة العربية في نيجيريا خلال القرن السابع عشر الميلادي

نشأتها وتطورها وأثرها على الفكر والحضارة

تكر محمد إنوا*

كلية أحمد الرفاعي لقانون والدراسات الإسلامي

–ميسو – ولاية بوتشي – نيجيريا

مقدمة:

يريد البحث أن يقرّ في الأذهان أن النهضة الثقافية التي حدثت إبان قيام دولة صكّتو الإسلامية في القرن التاسع عشر ليست هي الأولي في تاريخ نيجيريا الثقافي . بل سبقتها نهضة أخرى بقرن أو أكثر، أثرت كذلك في حياة الناس فكرا وحضارة ، وشملت التأليف والتصنيف في متون وشروح ، ووضع المنظومات وقرض الشعر، ونبوغ العلماء، وظهور المدارس، وما أشبه ذلك.

ويتناول البحث ما يأتي :

- *التعريف بنيجيريا وعرض وجيز لتاريخ أهم المماليك والولايات التي كانت تشكلها قبل القرن العشرين .*
- *النهضة الثقافية في القرن السابع عشر الميلادي : نشأتها وعوامل النهضة .*
- *أهم مراكز البعث العلمي والعلماء الفطاحل ونشاطاتهم في تلك الفترة .*
- *أثر ذلك علي الفكر والحضارة .*

التعريف بنيجيريا:

كانت نيجيريا آخر أقطار إفريقيا الغربية شرقا ، ومبدأ أقطار إفريقيا الوسطي غربا، ، وكانت حدودها الشمالية تقع في قلب القارة الإفريقية تقريبا.[1] إلا أنها لم تكن تعرف بهذا الاسم ولا بحدودها الحالية قبل أن يقتحمها المستعمرون البريطانيون في مستهل القرن العشرين . والموجود قبل ذلك عبارة عن مماليك وولايات عدة تختلف في حجمها، وقوتها، و تاريخها، وحضارتها، و قبائلها، وأديانها، ومستقلة بعضها عن بعض، بدون رابطة تربطها سوي التجارة في أيام السلم والتنافر في أيام الحرب ومن أهم المماليك والولايات في نيجيريا قبل القرن العشرين ما يلي؛

(١) مملكة كانم برنو؛

* **البريد الالكتروني:** miyabarkatai@gmail.com

نشأت هذه المملكة في شمال جمهورية تشاد الحالية منذ القرن التاسع الميلادي، ففي القرن الرابع عشر اضطر مي عمر ابن إدريس إلي نقل حاضرتها إلي غزرغامو في الشمال الشرقي لبلاد نيجيريا الحالية، غربا من بحيرة تشاد.
قال محمد بللو: [2]

" وهي بلدة ذات أنهار وأشجار، ورمال واسعة، عامرة بالسكنى قبل هذا الجهاد، ولم تكن في هذا القطر أوسع منها وأكثر عمارة، ويسكنها البربر، والعرب، والفلاتيون، وفيها مماليك البربر كثيرا".

ولا يعرف بالضبط متى نشأت هذه المملكة العتيقة وكيف نشأت، وكان تاريخها مغمورا في الأخبار والأساطير، إلا أن ما سجله المؤرخون العرب يؤكد أن كانم كانت موجودة منذ القرن العاشر الميلادي، وأسلم سلاطينها في القرن الحادي عشر الميلادي. وكان مي همي جلمي (1097-1085) أول من أسلم من بين السلاطين.

بسطت كانم نفوذها في القرن الثاني عشر والثالث عشر على كافة المناطق السودان الوسطى، وامتدت إلى حدود الديار المصرية، ويشهد لذلك رسالة كتبها السلطان عثمان بن إدريس (1293 - 1311) إلى السلطان ظاهر سيف الدين البرقوق بشأن أعراب أغاروا على حدود دولته وسبوا أحرارها.[3]

ولما انتقلت إلى مقرها الجديد في غزرغامو بلغت أوج كمالها هناك في عهد السلطان مي إدريس ألوما(1603 - 1561) وكان جيشها في تلك الأيام مسلحا بالبنادق التركية. وازدهر الإسلام ازدهارا هائلا جراء الفتوحات التي قام بها السلطان شرقا وغربا. وقد سجلها كاتبه الخاص المؤرخ ابن فرْطُوَا في كتابه **"ديوان سلطان برنو".** وامتدت الدولة حينئذ إلى كنو و كثنه غربا، وإلى دار الفور شرقا، وإلى الحدود المصرية شمالا.

كانت لهذه الدولة علاقة مع مصر وطرابلس، وكانت لها مراسلات مع المنتصر من خلفاء حفص بتونس، وكان لها سفراء ومدارس في الدول العربية.

انحط النظام في غزرغامو في القرن التاسع عشر إثر هجمات جيش الجهاد الإصلاحي العثماني، ثم دهمها الرابح من السودان في آخر القرن ، وانتهى أمرها بوصول الاستعمار الغاشم في أوائل القرن العشرين.

(٢) ولايات الهوسا:

أما ولايات الهوسا، ذكر محمد بللو أنها كانت تشمل سبعة أقاليم ، ولسانهم واحد، وعلى كل إقليم أمير نظير الآخر، وأوسطها كثنه، وأوسعها زكزك، وأجدبها غوبر، وأبركها كنو. وهي بلاد ذات أنهار، وأشجار، ورمال، وجبال، وأودية وغياض. يعمرها السودانيون من مماليك البربر من أهل برنو والفلاتيون والطوارق".[4]

كانت بلاد هوسا تحتل منطقة واسعة النطاق في شمال نيجيريا ووسطها، وتمتد من مجمع نهر نيجر وبنوي جنوبا، إلى حدود أهير شمالا، ومن حدود مملكة برنو شرقا إلى الضفة الغربية لنهر نيجر غربا. وتطلق كلمة الهوسا على اللغة التي تتحدث بها هذه الشعوب والقبائل[5]. وكانت حسب التقسيم الأسطوري تشمل سبعة أقاليم أصلية وهي: كنو، كثنه، زَكْزَكْ، غوبر ورنو، ودوره، وغارُنْ غَبسْ. وسبعة فرعية وهي: كبّ ونفي، وياوُري، وبَرْغو وإلوري، وزَنْفرا.

وأما بالنسبة لنشأتها فإنها نشأت مؤخرا جدا. هذا لأن المؤرخين العرب الذين كتبوا عن بلاد السودان فيما بين القرن الثامن الميلادي والقرن الخامس عشر لم يذكروها،[6] وابن بطوط على سبيل المثال، زارها وجال في مدنها في القرن الرابع عشر وكتب عنها ولم يذكر بلاد الهوسا[7]. وذكر القلقشندي مملكة برنو ومالي ولم يذكر واحدة من أقاليم الهوسا،[8] وعد ابن خلدون المدن السودانية في مقدمته مثل: غانه القديمة، وصيلا، وتكرور، ومالي، وكانم، وحتى بعض القبائل الهمجية في الغابات ولم يذكر أقاليم الهوسا[9]. فدل هذا على أن بلاد الهوسا ما زالت فيما قبل القرن الخامس عشر في طور من الطفولة إلى حد أهملها المؤرخون في خريطة العالم السوداني. والحق إن بلاد الهوسا كانت في معظم تاريخها خاضعة للمماليك السودانية المجاورة لها مثل برنو وصنغي. فعلى هذا الأساس أصبح أثر تلك البلدان أظهر فيها من البلدان السودانية فيما قبل القرن الخامس عشر الميلادي. فعلى سبيل المثال وصل الإسلام إلى بلاد الهوسا لأول مرة من مالي على أيدي تجار من الوناغرة في القرن الرابع عشر، وأسلم على أيديهم سلطان كنو علي ياجي (1385- 1349) وسلطان كثنه محمد كورو ثم وصل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى المنطقة في آخر القرن الخامس عشر في عهد السلطان رمفا (1499 - 1463) وبه أعز الله الإسلام في بلاد الهوسا.

ففي القرن السابع عشر الميلادي سجل المؤرخ أحمد بابا أقاليم كانو، و كثنه، وشمال زكزك، وغوبر، وكبّ، في خريطة العالم الإسلامي. وصارت كثنه في تلك الأيام مركزا ثقافيا ثانيا في السودان بعد تمبكتو.

(٣) بلاد يوربا:

ومن أهم البلدان التي شكلت بلاد نيجيريا قبل الاستعمار بلاد يوربا. وكانت تقع في الجنوب الغربي لبلاد نيجيريا الحالية. وتمتد من نهر نيجر شمالا و شرقا، إلى المحيط الأطلسي جنوبا إلى داخل حدود دهومي غربا.وكانت كبلاد الهوسا تشمل سبعة أقاليم وهي: أويو (Oyo) و أوو (Owu) و كيتو (Ketu) وسابي (Sabe) وبنين (Benin) و بوبو (Popo) و إيفي

(Ife) وكانت إيفي هذه تعتبر مهدا للجميع حسب الأساطير الشائعة في أخبار يوربا[10].

ظهرت أويو بعدُ كأمبروطورية كبيرة في تاريخها إلى حد شملت كافة أقاليم يوربا السبعة. بدأت تظهر في مسرح التاريخ منذ القرن الخامس عشر، وفي الوقت ذاته مدّت سلطانها إلى كافة المناطق الواقعة جنوب نهر نيجير ما عدا الساحل. ففي القرن السادس عشر قامت بفتوحات نحو الساحل بغية السيطرة على التجارة الأطلنطيقية الرائجة حين ذاك، وبلغت أوج كمالها في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي لتمتد إلى داخل جمهورية توغو الحالية غربا، وإلى بنين القديمة شرقا، وإلى المحيط الأطلسي جنوبا. وأصبحت نفي (Nupe) وبرغو (Borgu) في الشمال تدفع إليها الأتاوي سنويا. ففي القرن التاسع عشر الميلادي طوتها الحركة الجهادية الإسلاحية عن بساط التاريخ وضاعت في خبر كان.

(٤) دولة صكتو الإسلامية:

قامت دولة صكتو في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ودامت لمدة قرن واحد فقط إلى حين اقتمها البرطانيون وعملوا على اسقاطها سنة 1903م. وهذه الدولة قد سعت سعيا مشكورا في بث الإسلام والثقافة العربية في كل صوب وحدب من البقاع التي تعرف اليوم بنيجيريا. استولت على كافة أقاليم الهوسا وعلى جزء كبير من أقاليم يوربا وامتدت إلى الحدود الشمالية لجمهورية كامرون الحالية في الشرق، وإلى بعض المناطق الجنوبية لجمهورية نيجر. ولم يفلت منها سوى مملكة برنو وأقاليم إيبو في الجنوب الشرقي.

وكان المهندس الرئيس الذي قام بتصميم هذه المملكة هو الشيخ عثمان بن فودي، ولد بغوبر في بلاد الهوسا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. والحق إن هذه الدولة قد عملت على بعث نهضة ثقافية كبيرة دام أثرها في نيجيريا حتى يومنا هذا.

النهضة الثقافية في نيجيريا خلال القرن السابع عشر الميلادي:

(1) نشأتها.

إذا ذكرت النهضة في حق تاريخ نيجيريا الثقافي أول ما يتبادر إلى الأذهان تلك النهضة التي حدثت إبان قيام دولة صكتو الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي. والحق، إن هناك نهضة أخرى حدثت منذ القرن السابع عشر الميلادي، وتمثلت هي كذلك في تطوير حضاري وعقلي، وشملت التأليف، والتصنيف، والنظم، ونبوغ العلماء، وظهور المدارس، ووضع المتون والشروح وما إلى ذلك.

لاحظ هيسكيت أن هذه النهضة تشبه إلى حد بعيد تلك النهضة التي حدثت في أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي والتي بلغت أوجّ كمالها في القرن السادس عشر الميلادي . إلا أنهما يختلفان أساسا في أن النهضة الأوربية تجديديّة، اعتمدت علي إحياء التراث اليوناني والروماني الوثني الكائن هناك منذ فترات قبل

الميلادي . وأما النهضة في بلاد الهوسا ما سبق لها مثيل في المنطقة وإنما انبثقت من التراث الإسلامي برمتها ، ولم تقتبس شيئا من الحضارة الوثنية الهوسية . وتتحدان من حيث أنهما انبثقا من ينابيع علمية ذات أثر فعّال في مجتمعها .[11]

وأما بالنسبة لتاريخ نشأة هذه النهضة فجمهور المؤرخين ذهبوا إلى أنها بدأت منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر. وبلغت أوج كمالها في القرن السابع عشر. والدكتور بالا عثمان (Bala Usman) يرى أن النهضة في هذه الفترة لم تختص ببلاد الهوسا فقط بل شملت السودان الغربي برمته [12] وقال؛ إن آخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس يمثل نقطة تحول في تاريخ السودان الحضاري، راوده سلاطين من مثل مي علي غاجي (١٤٧٠ – ١٥٠٣) في برنو، ومحمد رمفا (١٤٦٤-١٤٩٩) في كنو، والسلطان كانْتَا الأول (1524) في كبّ، والسلطان أسكيا توري (1493 – 1528) في صنغي، وأن العامل في ذلك يرجع إلي أسباب دينية وغير دينية.

(2) **عوامل نهضتها :**

ومن العوامل التي أدت إلى هذه النهضة ما يلي :

(1) دور التجارة الداخلية والخارجية :

مما لاشك فيه أن التطور الثقافي في الصحراء والسودان الغربي له صلة متينة بالتطور التجاري في المنطقة. فعلي سبيل المثال ذكر المؤرخون أن الإسلام لم يكن قد أثر كثيرا في حياة الفلاحين من سكان الأرياف، وخاصة في بلاد الهوسا فيما قبل القرن السادس عشر الميلادي، وكانت الحضارة والثقافة مقصورتين فقط علي سكان المدن ورجال الحاشية، لكن السهولة التي كان ينالها التجار المسلمون في التنقل بين المدن السودانية والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها عند الملوك والأمراء، إضافة إلي حسن طلعتهم وجمال سيرتهم مما دفع عجلة الإسلام وثقافته إلى الإمام في القرى والأرياف خلال القرن السابع عشر الميلادي فما بعده.[13]

كانت بلاد الهوسا تحتل موقعا ممتازا عند الطرف الجنوبي لأحد طرق القوافل التجارية عبر الصحراء ، وهو الطريق الذي إمتدّ من تونس شمالا، مارا بمدينة غات وغدميس وأهير إلى كنو وكثنه. وكانت بلاد هوسا على صلة بكل القوى التجارية والمدن التجارية في السودان وخارجها كمصر وطرابلس والمغرب وبَرْنُو، من أجل ذلك استطاعت أن تتكفل بالثقل التجاريي والثقافي والسياسي عقب سقوط صنغي واحتلال المغرب لها. وكانت كنو وكثنه ممن استفاد أكثر اقتصاديا وثقافيا من سقوط صنغي[14]. كما أن برنو كانت تتصل كذلك بليبيا منذ القرن السابع الميلادي عن طريق خط تجاري من طرابلس إلي فزّان، ومن خلال واحات كَاوَارْ إلى كَانِمْ . وكانت المدن التجارية في برنو تلفت رؤوس التجار والرحال منذ القرن

الخامس عشر الميلادي بما في ذلك العلماء .[15] فهذا كله مما مهد طريقا إلى النهضة في السودان

(2) دور الوفود والبعثات التعليمية

هناك عدد غير محصور من الأفراد والجماعات وصلوا إلى ما يعرف اليوم بنيجيريا في أوقات مختلفة. وأول وفد وصل إلى بلاد الهوسا مجموعة من العلماء الوناغرة من مالي وكانوا أربعين رجلا، وعلي رأسهم عبد الرحمن الزيتي ، وصلوا إلي كنو في عهد السلطان ياجي علي (1346-1285 م) وأسلم السلطان علي أيديهم. ويبدو أن البعثات من مالي توالت بعد هذه واستقرت في مختلف أقاليم الهوسا ، حكي المؤرخ هِيسْكيتْ أن بعض هؤلاء، وصل إلي كثنه وغوبر وكب وغيرها.[16]

و وصل وفد الفلانيين في عهد السلطان يعقوب تساقي (-) وأحضر معه الكتب في التوحيد واللغة .[17]

ومن الأفراد الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي، جاء من المغرب في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي فاتخذه السلطان رمفا صديقا ومستشارا، فنسخ له القرآن، وصنف له كتابا بشؤون الملك عنوانه **" تاج الدين فيما يجب علي الملوك "** وصنف للسلطان أسكيا ملك صنغي أجوبته المشهورة . وله بجانب ذلك مؤلفات كثيرة دام أثرها في بلاد السودان حتي هذه اللحظة. ومنهم محمد الشيخ زهرة التونسي وصل إلى كنو ومعه الشفا للقاضي عياض وصحيح البخاري . ووضع منظومة تتضمن نصا ئح وأدلة في تحريم أكل الطنْيوت (cola nut)[18]وهناك الشيخ عبد السلام المغربي جاء ومعه كتب كثيرة منها:المدونة الكبرى، والجامع الصغير، والسمرقندى، وشاع خبره بين الأنام، ووفد إليه الطلبة من زكزك وبرنو وغير هما في السودان .

و على نفس الغرار رحل رجال من هذه البلاد إلي الشرق لطلب العلم وأداء الحج واتصلوا بكبار العلماء والأعيان والكتاب ورجعوا إلي بلادهم وتصدروا للتعليم. منهم القاضي محمد بن أحمد (أيد أحمد توفي 1529 م) رحل إلي تكدة ولقي بها المغيلي وحضر دروسه ، ثم رحل إلي الشرق ولقي الشيخ زكرياء، والقلقشندي وابن أبي شريف، وعبد الحق السنباطي، وأخذعنهم . ولقي أبا بركات النووي ، وعلي بن الناصر الحجازي ، وأباطيب البستى ثم عاد إلي بلاده وتوطَّنَ كثنه .[19]

منهم عبد الله ثقة، درس علي الشيخ البكري في برنو . ثم رحل إلي فزان و تضلع من مشايخها ثم عاد إلي بلاده. ورحل كذلك محمد الكشناوي الفلاتي إلي الشرق و اتصل بالشيخ محمد الوالي بن سليمان الباغرمي بتشاد، ثم واصل اليسر إلي الحرم الشريف وإلي مصر ومات أثناء عودته إلي وطنه. وجملة القول إن

النهضة في القرن السابع عشر ثمرة هؤلاء الغرباء، والعلماء المحليين الذين رحلوا إلي الشرق وشربوا من ينابيعه الصافية. [20]

(3) انهيار صنغي :-

في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حدثت حادثة تاريخية في السودان الغربي، وذلك أن النظام في غاو انحل بعمل الجيش المغربي سنة (1591 م) وأدي ذلك إلي انتشار العلماء والتجار من مدينة تمبكتو، وتحولوا إلي بلاد الهوسا وبرنو، ومن ثمّ تحولت الخطوط التجارية الصحراوية من غربي السودان إلي وسطها . فاستفادت كثنه أكثر من غيرها جراء هذه الحارثة . فأصبحت مركزا تجاريا وثقافيا ثانيا بعد تمبكتو . ويذكر أن المؤرخ أحمد بابا أدرج كنو وكثنه وشمال زكزك وغوبر وكبّ ضمن خريطة العالم الإسلامي في القرن السابع عشر الميلادي [21]. وهذه الفترة صادفت بالفعل اتساع رقعه نفوذ بلاد الهوسا نحو الجنوب إلي نهر نيجر، و صادف وصول الإسلام إلي أويو(oyo) ونفي (Nupe) في أكبر الظن .

(4) دور الملوك والأمراء

للوسط السياسي دوره في هذا الصدد، بل كانت السياسة في مقدمة العوامل . ذلك أن العلماء ما أنجزوا انجازاتهم إلا من خلال التعاون مع الأمراء والسلاطين . ويذكر علي سبيل المثال أن سلاطين برنو في القرن الثالث عشر عقدوا علاقات دبلوماسية وسياسية مع مصر وطرابلس وتونس والمغرب، وعلي أساس هذه العلاقات كتب سلطان برنو عثمان برّي بن إدريس (1393 – 1391) إلي السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بمصر يستنجده ضد أعدائه . وعلي أساس العلاقات نفسها بني السلطان كاشم برّي سنة (1342 م) كلية بالفسطاط القاهرة تسمي كلية ابن رشد لتدريس الفقه المالكي لأبناء السودان .ذكر هيسكيت [22] أن محمد أسكيا ملك صنغي لقي جلال الدين السيوطي بالقاهرة أثناء رحلته إلي الحج . ولقيه كذلك سلطان كانم علي غاجي سنة
(1484م). وكان للسيوطي هذا مراسلات مع ملوك السودان بشأن سياسة الأمة علي نهج الإسلام. والحق إن تاريخ الإسلام في السودان لا ينسى السلطان إدريس ألوما (1603– 1571) وأسكيا توري (1528 – 1493) ومحمد رمفا (1463 1499) وعلي غاجي (1503 – 1470) وهؤلاء قد تعاونوا بحق مع العلماء في نصرة العلم، وقاموا بفتوحات واسعة النطاق في أوطانهم، مما أدى إلي النهضة بصورة مباشرة في العصور التالية لأزمانهم [23]

(3) مراكز بعثها ؛

(1) **مدرسة ين دوتو** (Yan doto)

كانت ين دوتو مدينة ثقافية تقع علي الحدود بين كتِنَهْ وزَنْفرا، وبالضبط بين غوسو (Gusau) وثافي (Tsafe) في ولاية زنفرا الحالية. وكانت محصّنة بالجدران ، ومحفوفة بالجبال من كل الجوانب ماعدا جانبها الجنوبي .[24]

ولا يعرف بالضبط متى نشأت هذه المدينة . ذهب قريب الله إلى أن الشيخ يحي بن عبد الله بن حسن بن المثني بن الحسن السبط بن علي هو المؤسس لها، وذكر أنه جاء من المدينة المنورة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، ومعه أتباع كثيرون وأقام بها دولة علوية .[25]

ومهما يكن من أمر هذه المدينة إن المصادر التاريخية تؤكد أنها لمن أقدم المدارس في السودان . ومن المصادر ما ذهب إلي أنها أقدم من مدينة تمبكتو علميا ، وأنها اشتهرت كمركز علمي منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وأصبحت ملتقي للعلماء الوفدين من المغرب ومصر وغير هما[26]. ويذكر أن الإمام عبد الرحمن السيوطي وفد إلي علمائها ببعض مؤلفاته، واستفاد منهم هو أيضا.[27]

ليس لدينا – من الأسف – قائمة تضم أسماء علماء هذه المدرسة ولا مؤلفاتهم ، والمعروف فقط، أنهم قد ألفوا وصنفوا في مختلف المجالات، وأن لهم إطلاعا واسعا في اللغة والتفسير والحديث والحساب والنجوم وغيرها ، وان معظمهم ينحدرون من أصل ونغري، ويعد من علمائها النجيب الأنصماني ، والعقب الأنصماني[28] . وفي آخر القرن الثامن عشر عاش بها علماء كالحاج عمر ومحمد سَمْبو َطنْ الشّفا، وقد بايعا الشيخ عثمان بن فودي حينما ظهر في غوبر . وكان الشيخ بن عبد الرءوف من علمائها أيضا، وبها تتلمذ الشيخ العالم العلامة البكر البرناوي .

وخمول علماء هذه المدرسة وضياء مؤلفاتهم قد يرجع إلي الأسباب الآتية :

(1) أنهم طول التاريخ كانوا مسامحين مع الوثنية المتفشية في القرى والأرياف في بلاد الهوسا قبل ظهور الشيخ عثمان بن فودي، لما وقر في نفوسهم وأصّلوه في مبادئهم أن " **الدعوة السليمة خير من الجهاد بالعتاد والسلاح**"[29].

(2) وكانو يستخدمون العظام، واللحوم، والدماء البشرية، والحيوانية، ويخلطونها ببعض آي القرآن لأغراض؛ منها قتل عدوهم أو إيذائه، أو عدو من استغاث بهم . وكانوا يفرقون بين المرأ وزوجه أو بين المتحابين .[30]

(3) وكان لهم بجانب ذلك كله مشاغبات وخزعبلات في تكفير من يخالفهم في بعض آرائهم [31]

(4) امتناعهم عن مبايعه الشيخ عند ظهوره . ذلك مما أدى إلي إنهار المدرسة، وحرق مؤلفاتهم، ومحو آثارهم وذكرهم . فقد قاتلهم محمد بللو بن الشيخ سنة (1807 م) واحتل المدينة، وراحوا من أجل ذلك ذكرا قد طواه النسيان.

(2) مدرسة غازرغامو: (**Ngazargamu**)

يعتبر عهد مَيْ عليّ غَاجي (1504 – 1472) بداية للتطور الثقافي في برنو كما لمحمد رمغا (1499 – 1463) في كنو، وإبراهيم سُورَى (1498 – 1493) في كثنه. وإلي عهده يرجع تاريخ نشأة المدارس العلمية في برنو . وكان أول من تقلد لقب الخليفة بين سلاطين برنو ، وخص العلماء بامتيازات وأناط بهم مقاليد الحكم .

ذكروا أن مؤسس هذه المدرسة هو الشيخ أحمد الفاطمي . ويبدو أن سيادة المدرسة لم تعد إلي أيدي الأهالي إلا في آخر القرن السادس عشر الميلادي. وكانت في معظم أوقاتها تعيش علي حساب القصر ونفقته ، وقد ارتادها العلماء الطوارق من الصحراء، و علماء من المغرب والأندلس وقد اشتهروا بتدريس القرآن والفقه ومن ثمّ تميزت برنو بالتفوق في حفظ القرآن ونسخه ، وأصبحت كعبة الطلاب يقصدونها من كل فج عميق .

وقد اهتم علماء هذه المدرسة بالفقه والتوحيد واللغة ولهم إنتاجات شعرية في المدح والرثاء والزهد وغيرها .

ومن أكبر علمائها الشيخ البكر، شيخ شيوخ زمانه، أخذ العربية والبلاغة عن علماء ين دوتو، ولقي الشيخ نجيب الأنصماني ثم عاد لبلاده وتصدر للتدريس .

ومنهم العلامة الفقيه أبوبكر الباكومي المعروف بابن آجروم ، أخذ عن الشيخ البكر وله منظومة في العقيدة عنوانها شرب الزلال .

ومنهم الشيخ الطاهر بن إبراهيم فيرمّ الفلاتي. نشأ بموضع غير بعيد من العاصمة يسمي ذات البقر، وأخذ العلم عن الشيخ البكري، ثم رحل إلي مصر وتونس وليبيا وفاس في طلب العلم، ثم عاد إلي بلاده وتصدر للتدريس والتأليف . وقد آواه السلطان إلي قصره ثم فسد ما بينهما وترك القصر وعاد إلي مقره . وله منظومات ومؤلفات وشعر. ومن أهم مؤلفاته ؛نظم الوسطي للشيخ السنوسي الجزائري، ونظم الكبري للسنوسي أيضا (في العقيدة) ، والدرر اللوامع علي منار الجامع، نظم فيه لامية الأفعال لا بن مالك في الصرف، وشصّة العوامل الشائصة في النحو.

ومنهم الشيخ أحمد البرناوي، كان فقيها ومحدثا، نظم كتاب الأخضري في الفقه. ومنهم العلامة أحمد المقرني المشهور بشتيم المقرني ، ومنهم العلامة أحمد العربي والعلامة الأديب عمر الفلاتي الشهير بمَام.َ

(4) **مدرسة كلمبردو** (Kulumbardo)

نشأت هذه المدرسة في القرن الخامس عشر الميلادي شمال الشرقي للعاصمة،
وكان من أكبر علمائها الشيخ والي بن الجرمي الطارقي، والشيخ ولديد الفلاتي التورودي . وكان لهذه المدرسة صلة بأهير ، وكان أستاذها ولديد درس علي علماء أغدز وتمبكتو . وكانت المدرسة قادرية الهوية .

حدث أن الشيخ والي الجرمي تنافر مع السلطان فقتل جراء ذلك عام 1636 م ، وفر زميله ولديد إلي باغرمي وانهارت المدرسة .

وفي عهد السلطان علي بن عمر (1676 – 1637) عادت المدرسة إلي النشاط تحت سيادة الشيخ عبد الله البرناوي حوالي سنة (1664 م ،) وكان هذا السلطان يجل العلماء ، يقال إنه حج خمس مرات، وكان يوفر المدارس في برنو بالكتب من أهير وغيرها ومن ثم أصبحت المدرسة علي صلة بالمراكز العلمية المشهورة في العالم الإسلامي .

درس عبد الله البرناوي علي الشيخ أحمد الصادق بن محمد أويس القادري ، وكان يتصل بالزوايا القادرية علي ضفة النيل ، وقد أسلم علي يده خلق كبير. قتل غيلة علي يد أعدائه من الطوارق سنة 1678 م وانهارت المدرسة من جديد، وانتشر تلاميذها إلي مختلف بقاع السودان حتى وصل بعضهم إلي نوفي (Nupe) في الجنوب [32] .

ذكر المؤرخ (Huncwick) أن هذه المدرسة لم تخلف إنتاجات تذكر، أو لم تصل إلينا علي الأقل [33].

(4) مدرسة كثنه :

ولدت هذه المدرسة في عهد المغيلي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . وقامت علي سوقها خلال القرن السادس عشر على يد تلاميذه، من مثل الشيخ أحمد التاذختي المشهور بأيد أحمد (توفي 1489 م) و الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبي (توفي سنة 1533 م). لما انهارت مملكة صنغي استفادت كثنه كثيرا ، لما وصل إليها من علماء تمبكتو، وتحول إليها التجار من شمال إفريقيا وغيرها .

قد ازدهرت هذه المدرسة في القرن السابع عشر الميلادي علي أيدي علماء أجلاء علي هذا النحو؛

الشيخ محمد بن الصباغ (توفي 1665 م) وله شرح علي العشرينيات وأزهار الربا في أخبار يوربا، وتزيين العصا في ضرب هامة من عصى، وعين

الإخلاص في تلاوة سورة الإخلاص، و فتح المرام لمثل قصيدة ابن هشام (في الصرف) .

ومنهم محمد بن مَسَنَهْ (توفي 1667 م) وله مؤلفات منها، النفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية، ونزهة يسيرة علي معرفة ما يقبل الصرف وعدمه، وبزوغ الشمسية في شرح العشماوية .

ومنهم الشيخ محمد الكشناوى رحل إلي الحجاز ومصر في طلب العلم وتوفي هناك، وله تأليف عنوانه الدر المنظوم في السحر والأوفاق والنجوم (في مجلدين) وله كذلك كتاب في سيرة أستاذه وهو تحفة المولي في ترجمة محمد بن سليمان الوالي.

ومنهم هاشم بن تاكم، وكان من كبار العلماء في كثنه حتى قال فيه الطاهر بن إبراهيم فيرم : [34]

أيدري زماني هاشما وابن تاكما * أتاكم بريق هاشم ما أتاكما

(5) مدرسة كنو:

ذكر يارو يحي (Yaro Yahya) أن المغيلي هو المؤسس لهذه المدرسة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي [35] ويقول (Huncwick) بما أن البعثات التعليمية لم تنقطع سلسلتها عن مدينة كنو منذ عهد الشيخ أحمد بابا التمبكتى في القرن السابع عشر، وأن العلماء لم يزالوا يواصلون فيها نشاطاتهم طول التاريخ، لكن لم يشتهر أحد من الأهالي بالإنتاج والتأليف وذاع صيته خارج الإقليم إلا في بداية القرن العشرين. فقد اشتهر الشيخ أبوبكر الأرض البيضاء المؤسس لمدرسة مدابو (Madabo) وأولاده عبد الله وعبد الرحمان السيوطي ، والشيخ عمر باجومي في القرن التاسع عشر لكنهم لم يخلفوا انتاجات تذكر[36]

ومهما يكن الأمر فإن علماء كثنه من مثل الشيخ أحمد التازختى والشيخ مخلوف البلبلي كانا يزورانها، وكان لهما فيها حلق علمية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وأصبحت الكتب في هذه الفترة من السلع التي تباع في سوق كنو بثمن غال ، و كثر الاستنساخ للبعث بها إلي المدن والقرى المجاورة ، وكان العلماء يتقاضون مقابل هذه الأعمال مبالغ كبيرة، وتضاعف من أجل ذلك عدد العلماء وخاصة في عهد السلطان أبي بكر كادو (1573 – 1565 م) .[37]

وقد سكنها كذلك الشيخ أحمد بابا في القرن السابع عشر الميلادي وكان له مؤلفات عدة .

ومن أجل علمائها عبد الله بن محمد بن عبد السلام الكشناوي المعروف بعبد الله ثقة ، تعلم في أكدز، وفزان، وأخذ عن ابن غانم. سمي ثقة لأنه حفظ الصحاح الست عن ظهر قلبه فيما يقال عنه ، ودرس عليه موسى بن نسير السوداني،

ومحمد البغاوي[38] وله مؤلفات كثيرة منها تقريظ علي صحيح البخاري ، وعطيه المعطى، وهى منظومة في المسائل الدينية، تقع في سبع وأربعين بابا .

ثمرة النهضة :

فقد تركت هذه النهضة آثارا خالدة في السودان منها :

(1) إيجادها لهؤلاء العلماء المذكورين ومؤلفاتهم . قال قريب الله إن انتاجات الفترة قبل الجهاد أكثر من انتاجات عصر الجهاد[39] . وربما لم يصل إلينا معظمها لأن التاريخ أودى بها .

(2) إثراء اللغات السودانية بالمفردات الجديدة وخاصة في مجال الدين و التجارة و الملك . ففي لغة الهوسا علي سبيل المثال كان معظم الألفاظ الدينة كالصلاة والطهارة والزكاة والكفارة والإيمان تعبر بالعربية ، ومعظم الألفاظ التجارية كالسوق والربح والخسارة والأمانة ، وكذلك أيام الأسبوع والعقود من الأعداد من عشرين إلي تسعين ، وألفاظ الملك كالسياسة والحكم والقضاء والعدل والظلم ، بل من الباحثين من يقول إن خمس مفردات لغة الهوسا مأخوذة عن العربية بغير تغيير أو بتغيير بسيط.[40]

(3) ضبط اللغات المحلية بالخّط العربي . وكان من أثر هذه النهضة أصبح الأهالي يكتبون لفاتهم بالخط العربي فسهل لهم التراسل وضبط الوثائق، ثم ارتقوا في الباب فراحوا يعبرون عن عواطفهم عن طريق النظم علي البحور العبرية : من طويل ومديد وبسيط وغيرها . ذكر يارو يحي أن هذه المحاولات نشأت في قصر رمفا منذ عهد المغيلي .[41] إلا أن أقدم عمل من هذا النوع وصل إلينا هو الذي يعود تاريخه إلي ما بين (1762 – 1828) [42].

(4) نشأة الأدب العربي المحلي. كان قرض الشعر مقصورا على الغرباء فقط، فلما بلغت النهضة أوج كمالها شاركهم غيرهم من العلماء الأهالي، فنظموا في المدح ، والعتاب، والحكم، والإرشاد والوعظ والزهد وغيرها .

(5) ترجمة الحروف الهجائية إلي اللغات المحلية لتدريس الأطفال والعوام ، فوضعوا لكل من الألف والباء والتاء إلي آخر حرف اسما خاصا في لغات الأهالي .

(6) تطوير الأنظمة السياسية والاجتماعية.

فقد عملت هذه النهضة في تطوير حياة السودانيين من حيث أنظمتهم السياسية . ولا ننسي اثني عشر مشروعا أنجزها السلطان رمفا بإشارة المغيلي في كنو : منها تشكيل مجلس الشوري، وتوسيع الحصن ، وبناء الأسواق وغير ذلك . ولا ننسي الدستور الذي وضعه المغيلي للسلطان رمفا ، وأجوبته علي أسئلة محمد أسكيا توري بشأن الراعي والرعية . ولا ننسي الفتوحات التي قام بها إدريس ألوما

في برنو وأسكيا توري في صنغي . فقد عملت النهضة في رفع المدن السودانية ومجتمعاتها إلي مستوى إخوانهم البيضان في العالم الإسلامي.

خاتمة :

اتضح لنا مما سبق أن نيجيريا بلدة ذات تاريخ عريق ، وأن تاريخ الثقافة العربية فيها كان متوغلا جدا في القدم . وبما أنه لم يرو لنا أن العرب استولوا علي إقليم من أقاليمها عن طريق الفتح الإسلامي لكن بفضل التجار والرحال والعلماء اعتنق أهاليها الإسلام ، وذلك منذ القرن الحادي عشر في كانم برنو، والقرن الرابع عشر في بلاد الهوسا . وبقيت حركة العلم في أيدي الغرباء حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي . ففي القرن السابع عشر شاركهم الأهالي ففتحوا المدارس ، وألفوا الكتب، وصنعوا في مختلف المجالات حتى تحول الأمر إلى نهضة كبيرة امتلاء منها المكتبات السودانية بالكتب من إنتاج قرائح النجباء من أبنائها . وسجل التاريخ في صفحاته الخالدة أسمائهم ليبقي ذكرهم مدي الأيام والليالي . والحق إن البحث لم يستوف حق الفترة السابقة للجهاد العثماني . وهذه المقالة إنما هي عبارة فقط عن محاولات غرضها الأساس إنارة الطريق لبحث جاد عسي أن يكون قريبا .

هوامش وإحالات:

(1) علي أبو بكر ، الثقافة العربية في نيجيريا (بيروت، مكتبة عبد الحفيظ البساط ، 1972) ص 13

(2) محمد بللو ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (القاهرة، دار مطابع الشعب ، 1964) ص 33

(3) علي أبوبكر ص 58

(4) محمد بللو ص 44

(5) شيخو أحمد غلادنث ، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا (الرياض، العيبكان 1972) ص37

(6) Hodgkin ، T. **Nigerian Persipectives:** (London، Oxford University Press، 1975) p.9

(7) Hiskett ، M . **The Development of Islam in West Africa :** London، Longman، (1984) p.85

(8) القلقشندي، أبوا لعباس أحمد بن علي ، صبح الأعشي في صناعة الإنشاء (القاهرة ، مطبع كوستا توماس،1418) ص 284

(9) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون ، بتحقيق أحمد الطاهر ،(القاهرة ، دار الفجر للتراث ، 2003 م) ص 82- 85

(10) آدم عبد الله الالوي ، في نيجيريا (بلا مكان الطبع 1971) ص 32

(11) Hiskett p.81

(12) Usman Y .B; **The Transformation of Katsina 1400- 1883 (Zaria**، Ahmadu Bello University Press، 1981) p.21

(13) Hiskett p.82

(14) مساهمات علماء غرب إفريقيا في نمو وتطور النحو العربي ،رسالة الدكتور قدمها محمد صالح حسن إلي قسم اللغة العربية جامعة بايرو ، سنة 1987 م ص 177 إلي 179

(15) Croder، **The Story of Nigeria**، M. Faber)، 1976 (

(16) Hiskett p .46

(17) شيخو أحمد سعيد غلادنث ص 64

(18) قريب الله ناصر كبدا الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية قبل كيان دولة صكتو العاصمة (قبرص ، دار الآن، 1993) ص 45

(19) محمد بللو ص 50

(20) محمد صالح حسن ص 304 وهيسكيت ص 80

(21) Hodgkin p .39

(22) Hiskett p .37

(23) Usman Y.B p.21

(24) عبد القادر ثاني :" مالم محمد سمبو طن أشفا وإسهامه في نشر الثقافة العربية " في مجلة مالم **للدراسات اللغوية ، جامعة عثمان بن فودي: عدد 6 (فبراير 2006م) ص 276 – وهيسكيت ص83.**

(25) قريب الله ص 25

(26) محمد صالح حسن ص 217 و304

(27) نفس المصدر والصفحة ، وكان عبد الله الإلوري ممن يقول إن السيوطي قد زار السودان ص89

(28) نفس المصدر ص 317

(29) هيسكيت ص 83

(30 / 31) عبد القادر ثاني ص 276 و 277

(32) هيسكيت ص 67

(33) **The Writings of Central Sudanic Africa** . Huncwick J، E.J Brill، Netherlands 1995 p 258 -260

(34) محمد بللو ص 52

(35) Yahya I. Y. **Hausa a Rubuce : Tarihin Rubuce – Rubuce cikin Hausa** ، Zariya،Gaskiya 1988 p.11

(36) Huncwick P. 258 – 260
(37) Hiskett P.89
(38) محمد صالح حسن ص 220
(39) قريب الله ص 45
(40) علي أبوبكر ص 378
(41) Yahya I.Y p.31
(42) Hiskett P.80